الطرق والمسالك في المغرب العربي
من اواسط القرن الرابع إلى أواسط القرن السادس هـ
العاشر إلى الثاني عشر م*

نقولا زيادة

خارطة 1

المقدمة

(1)

إن ما نطلق عليه المغرب العربي اليوم، والذي يشمل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب كان، في عرف الجغرافيين العرب المبكرين جزءا مما سموه أقليم المغرب، إذ أن هذه التسمية كانت تشمل، فضلا عن المنطقتين الساحلية والجبلية من الشمال الافريقي، الصحراء المصاقبة لذلك إلى الجنوب.
فقد كان هذا كله خاضعا في أوقات مختلفة لدول أو دويلات إسلامية متتابعة بدءا من القرن الثاني هـ/الثامن م.(1)

ولعل مما حمل هؤلاء على هذا الموقف هو ارتباط الشمال الافريقي بالصحراء، التي كانت وحتى في وقت مبكر من التاريخ، سبيله للاتصال ببلاد السودان، على ما سيتضح لنا فيما سنعرض له من طرق المغرب العربي ومسالكه في الفترة التي حددت للبحث.

وعلى كل فانه حتى من الناحية الجغرافية الطبيعية فان الصحراء تبدو امتدادا للشمال الافريقي في التاريخ المعروف. ولذلك فاننا، في سبيل تتبع الطرق والمسالك في الفترة المحددة، يتوجب علينا أن نلقي نظرة عامة على المنطقة بأجملها من حيث سطحها ومناخها وما يتصل بذلك من أمور هي التي كانت تعيّن اتجاه الطرق وتنقل القبائل.

يمتد عبر الشمال الافريقي من مصر إلى المحيط الأطلسي شريط ساحلي يتكون من مناطق تختلف عرضا من عشرات الأمتار إلى المئات منها، لكن الذي يغلب عليها الجفاف. فبين مصر والحدود الليبية شريط صحراوي، الذي يستمر هذا داخل ليبيا إلى دَرْنة التي تحيط بها أرض خصبة ضيقة لأن الجبل الأخضر يضغطها من الجنوب. وتتلوها جيوب طيبة التربة ترويها مياه الأمطار عند

* موضع هذا البحث في "كتاب المرجع" هو: الفصل الثالث/الطور الثالث – القسم الثاني الطور الثالث.

ابولونيا وطُوكَرَة وبنغازي. فإذا تركت بنغازي عليك أن تجتاز نحو الف ومئتي كيلومتر من الصحراء هي ساحل سِرْت (أو سُرْت) الأجرد. في طرابلس وجوارها سهول تنال حظا من المطر، فتنتج الخضار والفواكه المعروفة في حوض البحر المتوسط. ويقع سهل الجفّارة الساحلي بين طرابلس وقابس (في تونس)، وهو الذي يقدم للسكان حبوبا وما إلى ذلك. وتستمر هذه السهول، ولو أن رؤوسا صخرية تفصل بعض أجزائها عن البعض الآخر، من قابس عبر الساحل التونسي إلى مدينة الجزائر. ويستمر هذا الوضع حتى الوصول إلى تَطْوان وطنجة. وتسمى المنطقة الساحلية التي تمتد عبر الجزائر التل، لأنها ترتفع تدريجيا من الشاطئ في اتجاه جنوبي إلى نحو 30 كيلومترا. وبعد المنقلب من طنجة يجتاز المسافر سهلا ساحليا يتسع مع الاتجاه جنوبا نحو الرباط والدار البيضاء وآسفي (صافي) وأغادير، حيث تعترضه أطراف سلسلة جبال أطلس، ثم ينفتح ثانية في منطقة السوس.

وقد أتيح شخصيا أن أتنقّل على هذا الطريق برا، في وسائل مختلفة كالسيارة والباص وسيارة اسعاف والقطار من السلوم (على الحدود المصرية – الليبية) إلى أغادير على الأطلسي.

تقع إلى الجنوب من هذه السهول والجيوب الساحلية، من الشرق إلى الغرب، جبال في مجمعات صغيرة أو سلاسل مرتفعة متصلة هي: الجبل الأخضر في برقة الذي يبلغ أقصى ارتفاع له نحو 800 متر؛ وجبال نفوسة في منطقة طرابلس، والذي يمتد طرف قوسها إلى جهات قابس في تونس، محتضنة السهل الساحلي الذي مر بنا ذكره.

ومن طَبَرْقَة الواقعة على الساحل التونسي على مقربة من الحدود الجزائرية، ومن نقطة تقابلها إلى الجنوب عند قفصة تبدأ سلاسل جبال وهضاب مرتفعة أولها أوراس في شرق الجزائر وجبال عمّور وجبال القصور إلى الغرب منها.

وارتفاع هذه الهضاب والجبال يتراوح بين 800 و 900 متر، وقلما يتجاوز الألف من الأمتار.

وفي المغرب تقوم سلاسل جبال أطلس، التي تتكون من سلاسل ثلاث: الأطلس الأوسط (من حيث الارتفاع) يليه الأطلس الأعلى ويحاذي هذا انتي أطلس (وقد يطلق عليه الأطلس الجنوبي).

وتتسع المساحة التي تشغلها سلاسل الجبال هذه في اتجاهها نحو الغرب. ففيما يكون اتساعها (شمالا في جنوب) بادئ الأمر نحو 300 كلم فإنها في الأجزاء الغربية من المغرب تصل إلى نحو ألف من الكيلومترات، كما أنها تصل هنا إلى ارتفاعات أكبر. وفي طريقي في السيارة من مراكش إلى تارودَنْت في السوس وصلنا إلى نقطة وضعت عليها إشارة 4000 متر, وكانت القمة الواقعة إلى شرق الطريق واسمها توكْبال ترتفع 4165 مترا. (راجع الخارطة رقم/ ابو النصر)

(**2**)

تقع إلى الجنوب من هذه المنطقة الساحلية الجبلية الصحراء الكبرى. وهي صحراء طولها من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسي 12.000 كيلو متر وعرضها نحو 1.600 كيلو متر. والجزء الذي يخص بحثنا منها أي من الحدود المصرية الليبية إلى المحيط الأطلسي هو نحو 10.000 كيلو متر شرقا في غرب. واذن فإن مساحة الصحراء التي هي جزء من المغرب العربي أو أقليم المغرب (بحسب تعريف قدامى الجغرافيين العرب) هي ستة عشر مليون كيلو متر مربع. وتقع بين خطي عرض 15 و 20 شمالا.

والصحراء الكبرى على ما هي عليه الآن لا يتجاوز عمرها ثمانية الآف سنة. فثمة اجماع بين دارسيها على أنها كانت، في تلك الأزمنة منطقة تتمتع بأمطار غزيرة، وتخترقها أنهار كثيرة على ما اتضح من الأودية الجافة التي لا يمكن أن تكون نتيجة مطر خفيف يسقط بين حين وآخر، ومن متحجرات لحيوانات لا تعيش الا في أرض غنية بالماء ومنها الفيل من الحيوانات الضخمة وأسماك وحيوانات بحرية متنوعة. لكن تبدل الجو الذي أصابها أدى بها إلى ما صارت إليه. والصحراء الكبرى سطحها متنوع في تركيبه وفي نتوئاته. فهي ذات سهول متسعة تنقطها هضاب صخرية وأراض رملية وانخفاضات من جميع الأنواع. وهذه الانخفاضات قد تكون منفردة أو متقاربة، أو تكوّن سلسلة تمتد آلاف الكيلومترات مثل السلسلة التي تمتد من طرف مرتفعات الهُجّار إلى منخفض أوشُطّ (كما يسمى في تونس) مِلْرْهِر. وفي مثل هذه المنخفضات المتصلة شبكة (وتلفظ في المغرب شْبَكَه). هذه الأوضاع هي نتيجة تطورات جيولوجية تعاقبت على المنطقة فكانت النتيجة هذا السطح العجيب.

خارطة 2

على أن هناك أماكن مرتفعة في المناطق الجبلية تبلغ ارتفاعا لا يستهان به. منها الهجّار (في الجزائر) حيث ترتفع أعلى قمة فيه إلى نحو 3430 مترا، وتِبِسْتي (في التشاد) التي تصل أعلى قمة فيها وهي إمي كورِسي (Emi Korisi) إلى 3490 مترا ، وهما نتيجة تفجرات بركانية. وهناك مجمعات جبال متعددة أقل من ذلك ارتفاعا مثل إنّدي (Ennedi) في التشاد أيضا. وثمة تكتلات صخرية مثل الهانْك

(El Hank) في الجزء الغربي من الصحراء الذي يمتد نحو 480 كلم لكن ارتفاعه لا يتجاوز 55 مترا. إلى هذا ثمة تكتلات صخرية ترتفع نحو 825 مترا، الا انها أقصر مدى على وجه العموم.

وثمة المساحات الرملية المسماة هناك الارغ (Erg)، ولعلها تعنى العرق أصلا، التي لا تغطي أكثر من خمس مساحة الصحراء.

وفي هذه الصحراء الواسعة توجد واحات مختلفة السعة وكمية المياه مثل الكُفْرَة (في ليبيا) وسيوه في مصر وسواهما في جهات مختلفة وهي غنية بالمياه، وثمة تلك التي فيها ماء قليل وقد يكون مالحا. وهذه الواحات تستقي من المياه الجوفية المختزنة في طبقات الأرض منذ الزمن الذي كانت في الصحراء غزيرة الأمطار كثيرة المياه. علمأن هذه الواحات كانت تنفع الكثيرين لما كان استهلاك الماء محدودا. لكن الزيادة في استعمال الماء، خاصة في الواحات اصغيرة، أدى إلى نقص في ما يمكن أن يحصل عليه.(2) وقد شهدت بنفسي سنة 1949 معركة في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الغربي من الجبل الأخضر حول بئر شح ماؤها حتى أصبحت لا تكفي جميع الناس حاجتهم من الماء.

إلى الجنوب من خط العرض 15 وإلى مسافة تتراوح بين 200 و 300 كلم عرضا، مع امتداد عرض القارة الافريقية تقع منطقة السهوب (السفانا)، التي تنبت فيها الأشجار المنوعة والأعشاب الصالحة للرعي وتنمو فيها أنواع الحبوب والخضار والثمار. ولأن العرب شبهوا الصحراء بالبحر (الرملي طبعا) فقد اطلقوا على منطقة السفانا هذه "الساحل". في مدن هذه المنطقة كبيرها وصغيرها وقراها ومجمعات سكانها كانت القوافل الآتية من الشمال تريح – رجالا ودوابا، ويقوم التجار ببيع ما يحملون، ويحملون ما يبتاعونه. فكانت مواسم الأسواق أيام حركة ونشاط هناك.

ثم نصل إلى منطقة الغابات الاستوائية. وهنا نكف عن الكلام المباح.

(3)

في المرتفعات العالية في جبال الجزائر وأقل من ذلك في الأطلس، يسقط من المطر ما يزيد عن 1000 ملم، وتنعم المرتفعات الممتدة على طول الشمال الأفريقي، بما في ذلك الجبل الأخضر وجبل نفوسة بمعدل من المطر يتراوح بين 400 ملم و 1000 ملم. وهذا يعني أن الزراعة المتوسطية على اختلاف أنواعها يمكن أن تستغل فيها، كما أن أنواع المواشي المختلفة تجد المراعي المناسبة.

لكن هذه المنطقة بالذات، التي تختلف عرضا بين الجهة الواحدة والأخرى، لا تمتد إلى أكثر من مئة إلى مئة وخمسين كلم، ثم تأتي المنطقة الصحراوية التي لا يتجاوز سقوط المطر فيها، حيث يسقط وحين يسقط، المئة من الملمترات.

وهذه بداءة المنطقة الصحراوية التي ترتفع الحرارة فيها (على تفاوت في مناطقها) صيفا إلى 55 درجة سنتغراد في الظل، وتهبط إلى 2 س في الشتاء. وهذا يعتبر معدلا، بقدر ما يمكن لدرجات الحرارة أن تعدل في هذه الصحراء المترامية الاطراف. ويسقط المطر في بعض المناطق الصحراوية على نحو متقطع، ومدة الجفاف أو التحاريق طويلة وقد تدوم سنوات. وهو على ما ذكرنا، أقل من خمسة سنتيمترات، وقد يسقط من المطر في فزان مثلا عشرة سنتيمترات، وقد يتجاوز ذلك. لكن ذلك لا انتظام له. وانحباس المطر الطويل يزداد في اتجاهنا من الشمال إلى الجنوب.

وتهب على أجزاء من الصحراء عواصف رملية شديدة تؤدي إلى خسائر جسيمة في المواشي خاصة. فقد حدثت عاصفة من هذا النوع في الغولية سنة 1947 أدت إلى مقتل 1500 رأس من الماعز و2000 خروف!

ويبدو أن المياه الجوفية، التي مر ذكرها قبلا، المتبقية من العصور التي كانت الصحراء تتمتع فيها بأمطار غزيرة هي التي يعتمد عليها في الحصول على الماء في واحات وآبار يغزر فيها الماء أو يقل. فالغولية (El Golea) مثلا هي مناطق متميزة بسبب وجود الماء على مسافة قريبة من سطح الأرض. ولو أن الغالب على مثل هذه المناطق أن ينتقل الماء من مكان إلى آخر عن طريق "الفُجّار" ، وهي مجار حفرت تحت سطح الأرض بحيث تصبح مجاري للمياه. وهذه الطريقة معروفة من أقدم الأزمنة في البلاد الشرقية في عُمان وسواها من بعض مناطق الجزيرة وفي ايران وغيرها "والفجّار" موجودة في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من المغرب عبر الهجّار وحتى فزان شرقا. لكن تلك الموجودة في الصحراء الغربية هي الأكثر اتقانا.

خارطة 3

شجرة النخيل جزء أساسي في حياة سكان الصحراء. وهي تزرع في أماكن متعددة. ويكاد التمر يكون الغذاء الأساسي لأعداد كبيرة من السكان. وتزرع الحبوب وتنمو الثمار في مناطق محظوظة من الصحراء. وفيها قدر لا يستهان به من المعادن كالنطرون (كربونات الصودا) الذي كان يستخرج منذ

وقت طويل من مناجم في فزان وتِبِسْتي والهُجّار. وهناك مناطق فيها مناجم الحديد والنفط والاورانيوم، لكن الاستثمار في هذه قد بدأ حديثا. والملح المعدني الصخري ثروة كبيرة من ثروات الصحراء الطبيعية.

لكن المشكلة الرئيسية في الصحراء هي نقل هذه جميعها من مكان إلى آخر فيها، وإلى خارجها. وهذه القضية هي موضوع هذه الدراسة أصلا.

(4)

كانت الصحراء الكبرى، على ما يبدو من نقوش ملونة عثر عليها في جهات متعددة منها، تجتازها القوافل بين الشمال الأفريقي ومنطقة السهوب منذ أزمنة متوغلة في القدم. ولكن شيئا من التاريخ الذي يكاد يجمع عليه الباحثون، بدأ يتضح منذ قيام دولة الجرامَنْت في فزان وعاصمتها جَرْمَة حول سنة 100م واستمرت حتى 450م.

وقد اعترضت الباحثين قضيةُ الحيوان الذي استعمل لقطع هذه المسافات الطويلة أولا ولجر العربات المزدوجة أو الرباعية.

خارطة 4

ويمكن أن ترسم صورة لتاريخ النقل في الصحراء الكبرى على النحو التالي:

"كانت الثيران [المسماة زبو Zebu ، [وهو ثور له سنام ن.ز.] تستخدم في النقل قبل بداية عصور الجفاف بالصحراء، ثم أخذت الحمير تحل محلها بالتدريج. وظل الأمر كذلك حتى ظهرت قبائل الجَرامَنْت بالخيول [الحمير؟] والعربات، فنشطت التجارة وأُقيمت القلاع لحراسة الطريق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد الواقعة إلى الجنوب من حزام الصحراء الكبرى. وقد ساعد الاكثارُ من الخيول [الحمير؟] الجَرامَنْتَ على سيادة الصحراء. وفي القرن الرابع الميلادي ظهر عاملان أحدهما طبيعي والآخر تجاري أوديا بهذه السيادة. فقد قلت كمية المياه الجوفية في الصحراء الكبرى نتيجة لاستهلاك بعض العيون والآبار لمدة طويلة، فذوى الكثير من الواحات وطالت المسافة بين نقط التزود بالمياه ولم تتمكن الخيول والحمير من تحمل السير مسافات أكبر مما تتحملها طبيعة اجسامها، دون الحصول على الماء. ومن ناحية أخرى فقد عمل زوال الواحات والغطاء النباتي الذي كان بها على أن تزحف رمال الصحراء وتغطي الكثير من الطرق والدروب القديمة فاغلقتها، ووقفت المرُودُ وبحار الرمال عائقا أمام قوفل الحمير والجياد ."

أما العامل الاقتصادي فهو إن قبائل البربر المعروفة بقبائل الجمالة، قد اقتنت الكثير من الجمال وغزت الصحراء. ومن الطبيعي أن تعمل هذه القبائل على فتح طرق جديدة لعلها لم تعرف من قبل.

وهذا يحتم علينا أن نتحدث، باقتضاب كلي، عن الجمل والصحراء الكبرى. يبدو، من دراسات مختلفة عن موضوع الجمل ووصوله إلى الصحراء أن هذا الحيوان عرف في القرن الرابع ق.م. في الأجزاء الشرقية من الصحراء (4) أو حتى في القرن الخامس ق.م. (5) وقد عثر على نقش في دُقَّة (Dugga) في تونس فيه سائق وجمله (6). وقد استعمل الجمل للحراثة في القرن الثالث قبل الميلاد في مزارع طرابلسية. (7) ولما انتصر يوليوس قيصر على جوبا (Juba) احد أصحاب السلطان في الشمال الأفريقي أسر 22 جملا.(8) وفي سنة 360م طلب رومانوس (Romanos) 4000 جمل من لِبْتِس ماغْنا (مصراته) في طرابلس (9). ويبدو أن الجنود الرومان قد نقلوا ابلا من سورية إلى نوميديا (في الجزء الجنوبي من الجزائر الحالية) لاستعمالها في القتال، وقد شجعت السلطات على تربيتها في طرابلس. وقد استعملت الابل للدفاع في معركة وقعت بين ملك الفندال ثراسامُند (Thrasamund) وقبيلة صحراوية بقيادة زعيم اسمه كابَوُن (Cabaon) كانت قرب بيزاسِنا (Byzacena) في الجنوب التونسي، "فقد وضع كابَوُن ابله معارضة على شكل دائرة حول معسكره بحيث كانت هذه الدائرة تحوي اثني عشرة من الابل الواحد خلف الآخر. واخفي جنوده وتروسهم بين الابل. فلما جاء الفندال وكانوا فرسانا، لم يروا مقاتلين، وخافت الخيل من هذه الحيوانات فلم تهجم عليها، وعندها أطلق المحاصرون سهامهم على المهاجمين، فقتلوا عددا كبيرا من الفرسان وخيولهم، مما حمل الباقين على الفرار. وحري بالذكر أن العرب في فتوحهم للشمال الافريقي استعملوا الخيول، ولم يستعملوا الابل. لكن الجمل أصبح، منذ أن تبنته قبائل بربرية، على نحو ما ذكرنا، الحيوان الوحيد الذي استعمل في اجتياز الصحراء. (10)

(5)

خارطة 5

يمكن اجمال الطرق الصحراوية التي استعملت حتى القرن الثالث للميلاد في التالية:

اولا- طرق تبدأ في الشمال من منطقة أُوْيا (Oea) طرابلس (التي تشمل موانئ لبيتس مَغنا (لبدة او مِصْراتَه وصَبْراته) وتلتقي في غَدامِس، وتجتاز بعد ذلك مرتفعات تسيلي – ن – أنجَر -Tassili)

n-Anjer) الواقعة إلى الشمال الغربي من جبال الهُجّار، أو قد تتبع الأودية التي تخترق هذه الجبال بالذات، إلى جَرْمَة ثم عبر مرتفعات كُوار إلى غوا (Goa) عند منعطف نهر النيجر نحو الجنوب.

ثانيا– طرق يبدأ من جَرْمَة، عاصمة الجرامَنْت، ويتجه نحو الشرق وله فرعان: الواحد يصل إلى الكُفْرة، والثاني يتجه نحو بحيرة التشاد (تشاد)، ومنها إلى جنوب وادي النيل. وهناك طرق اخرى تتوقف في أُوجَلِة او سِيوِه أو سواهما، وتنتهي في مدن شمال وادي النيل.

ثالثا– ثمة طريق رئيسي طويل يبدأ من تمبَكتو الواقعة في منعطف نهر النيجر أيضا ويتجه غربا متجنبا الجزء الأكثر جفافا من الصحراء هناك، ثم ينعطف شمالا محاذيا الصحراء الغربية، وهي طبيعيا جزء من المطقة التي تشملها مع المغرب، ثم يتجه نحو المغرب.

على أن هذا لا يعني أن هذه هي وحدها الطرق الصحراوية التي استعملت خلال تلك الأزمنة، لكن هذه هي التي نالت نوعا من القبول لدى الباحثين حتى يوم الناس هذا. (يجب أن نتذكر دوما أن الباحثين في تاريخ الصحراء الكبرى وأقوامها وتنقل هذه الأقوام وتبادل شؤون الحياة انما يعالجون ملايين من الكيلومترات المربعة، وهي قادرة على اخفاء معالمها بسبب صعوبة التنقل فيها. فالتنقيب الأثري في الصحراء لم يكد يكشف الا عن جزء صغير من هذا الفضاء الشاسع ن.ز.)

(**6**)

وجاء الرومان. ومن الأمور التي شهر بها هذا القوم، في سبيل تيسير تنقل جيوشهم والقيام بادارة امبراطوريتهم على نحو جيد، هو بناء الطرق. وعندما نتحدث عن بناء الطرق عند الرومان فانه يتوجب علينا أن نذكر أن هذه الطرق كان بعضها "يُبلّط" بقطع كبيرة من الحجارة التي يحكم صفها لكن الأكثر كان يرصف رصفا جيدا. وكانت الجسور تعلو الأنهار ومجاري الماء الأخرى، كي ييسر الطريق للقوم – محاربين أصلا وسواهم ثانيا – التنقل المنتظم.

وأحسب أن الكثيرين من الذين ستقع عيونهم على هذا البحث سيذكرون أنهم شاهدوا، أو لعلهم حتى مروا على، مثل هذه الطرق. وأنا شخصيا شاهدت أجزاء على مقربة من قيسارية على الساحل الفلسطيني (1924) وبين أنطاكية وحلب (1925) وفي غرب ليبيا (1949) وفي نواحي الجم في تونس وفي الأصنام في الجزائر (1951) وفي وليلي (Volubilis) في المغرب (1959).

ولن نطيل في التحدث عن الوجود الروماني في الشمال الأفريقي. بل نكتفي بالقول أن رومة بدأت باحتلال تلك الرقعة في أيام الجمهورية، واقتصر الأمر، بادئ بدء، على قرطاجة والرقعة الواسعة التي تدور بها، والتي شملت منطقة نتوء بين خليج قابس في الجنوب والجيب المائي الذي يدور حول موقع مدينة تونس الحالية مع توسع غربا.

وفي أيام يوليوس قيصر واغسطوس قيصر، في العقود الأربعة الأخيرة من القرن قبل الميلاد والعقد الأول من القرن الأول بعده، أضيفت إلى الدولة الرومانية الشرعية الممتدة من شرق لِبْتِس ماغْنا (لبدة أو الخمس أو مِصْراتَه حديثا) عبر أوْيا (طرابلس) وصَبْراتَه وأُتيكا إلى ما يقرب من الحدود التونسية — الجزائرية الحالية.

وفيما تبقى من القرن الأول الميلادي وخلال القرن الثالث أضيفت شريحة أخرى ملاصقة لتلك بدءا من الشرق لكنها اتسعت في الاتجاه غربا حتى شملت الساحل ومنطقة التل في الجزائر والجزء الأكبر من شمال المغرب.

وقد شهد القرن الثالث الميلادي اضافة في الجهات الجنوبية إلى ما كان قبلا. ويمكن القول اجمالا أن هذا التوسع الأخير كان القصد منه وقف تحركات القبائل الأمر الذي اقتضى أن تدخل بقية المنطقة الساحلية شرقا حتى خليج سِرْت (أو سُرْت) حيز الامبراطورية وإلى برقة شرقا وأن يكون ثمة توسع جنوبي في كل من المنطقة الجزائرية والمغربية.

خارطة 6أ و 6ب

وأول طريق روماني عسكري مدون تاريخ بنائه يعود إلى سنة 14م وكان يمتد من قابِس (Tarcape) على خليج قابِس مسايرا الساحل أولا ثم ينعطف غربا في شمال إلى هَيْدرا (Ammaedara) (في أواسط الجزائر الحالية)، ثم مدد إلى تِبِسَّة (Thevessa). وقد بلغ مجموع طول الطرق الرومانية التي بُنيت في الشمال الأفريقي من حدود برقة الشرقية إلى المحيط الأطلسي حتى نهاية القرن الثالث ومطلع القرن الرابع للميلاد نحو 19.000 كيلو متر، منها طريق واحد كان مبلطا بقطع كبيرة من الحجارة، وأما تبقى فقد كان مرصوفا رصفا عاديا قويا — من صخور وحجارة صغيرة يتراوح سمكها بين 60 و 90 سنتمرا. (12)

ولأن هذه الطرق كان القصد الأصلي من بنائها عسكريا لنقل الفرق الرومانية من مكان إلى آخر فقد بذل القوم جهدهم في أن تبنى مستقيمة في اتجاهاتها، متخطية الكثير من الصعوبات المتعلقة

بالأرضين. وكانت الطرق المتجهة من الشمال إلى الجنوب تبدأ عند موانئ تخدم حاجات الامبراطورية أصلا مثل قرطاجة التي كانت مجمعا للحنطة من سهول تونس والجوار، والموانئ الطرابلسية الثلاث صَبْراتَه وطرابلس ومِصْراته التي كان يشحن منها زيت الزيتون إلى رومة، وكانت بالطبع، تستقبل ما يرسل من الشمال مثل الخيول والأخشاب والحيوانات الوحشية التي كانت تستعمل في المسارح لتسلية الرومان.

ولم يكتف الرومان بالقيام باعداد الطرق اعدادا فنيا متينا، بل عنوا بالجسور وقني الماء (مثل قناة زغوان بين هذه المدينة والعاصمة تونس) وقد وصلوا جزيرة جربة بالساحل التونسي بعبّارة كبيرة.

وقد تم الكشف عن أكثر هذه الطرق لأن الرومان كانوا يقيمون حجارة لمقاس الطريق على جنباته. وقد عثر على نحو الفين من حجارة الأميال هذه في أنحاء مختلفة من الشمال الأفريقي. وكانت أسماء الأباطرة التي بنيت أجزاء الطريق في أيامهم تنقش على الحجارة. إلى هذا كان للرومان يرسمون الخرائط لهذه الطرق. وقد عثر على خريطة تعود إلى القرن الثاني عشر (أو حتى الثالث عشر) وهي نسخة من خريطة رومانية رسمت في القرن الثالث م وفيها تظهر الطرق والمدن اليونانية الرئيسية. (تعرف هذه الخريطة الآن بـ "لائحة" بويتِنْغَر (Peutinger Table) على اسم الالماني الذي اكتشفها في مدينة وِرْمز (Worms) في المانيا في أواخر القرن الخامس عشر.) وإلى أسماء الأباطرة التي ذكرت أجزاء الطرق في أيامهم كان الرومان ينقشون أسماء فرق الجنود التي عملت في بناء تلك الطرق.

ونحن نضع هنا بين يدي القارئ أسماء المحطات على الطرق الئيسية من الغرب إلى الشرق، وقد كانت هذه تمتد في خطوط ثلاثة، وقد أفاد بناؤوها من طبيعة الأرض ونوع المناخ:

1. الطريق الساحلي – هناك طريقان في غرب المغرب تمتدان من طنجة إلى سلا – الرباط ومن طنجة إلى ولولي (Volubilis) . وينقطع الطريق هنا، ويستأنف ثانية في مليلة في المغرب ويسير محاذيا الساحل إلى تِنِس (في الجزائر) فبجايا فعِنّابة حتى بِزِرْت (أو بِنْزِرْت) في تونس ومنها إلى سوق الأبْيود فالمناستير فقابس (محاذيا ساحل خليج قابس) إلى صَبْراتَه وطرابلس ولبتس مَغْنا (مِصْراتَه) إلى سِرْت (أو سُرْت) إلى مرسى بْرِيقِة وبَنْغازي ودَرْنَة حتى الحدود المصرية.(14)
2. طريق الهضاب – (في المغرب) مغنيّة – تِكَمْبرِيتْ – (في الجزائر) سيغ – الأصنام – عَمّورة – سِطِيف – قُسِنْطِيَة – سوق أراس (سوق أحراس) (وفي تونس) الكاف القيروان – الجَمّ. ولم تكن ثمة طرق رومانية في طرابلس ولا يونانية – رومانية في برقة تخترق المرتفعات الواقعة جنوبي الساحل. (15)

3. الطريق الصحراوي في المغرب – مغنّية – ولاد ميمون – (في الجزائر) هنشر سْوَيق – سور الغُزَيْنَة– تِمْغاد – تْبِسَّة– (في تونس) قَفْصَة – قابس. وكان ثمة طريق صحراوي آخر يمتد لى الجنوب من الأول، في الجزائر وتونس من القَصْبات إلى تَوْزَر (على شط الجريد) ويدور بجبل نَفّوسَة حتى لِبْتِس مَغْنا (مصراتة) على الساحل (16)

وكانت ثمة طرق تتجه من الشمال إلى الجنوب. وتكاد كل ميناء على الساحل تكون نقطة انطلاق لطريق يخترق المنطقة إلى حيث ينتهي قبل الصحراء. فالرومان لم يبنوا طرقا في الصحراء الا بين طرابلس (أويا) ومِزْدا والفزان. وبين طبرق والجَغْبُوب، كما أنهم أصلحوا من شأن الطريق بين اجدابية وأوجيلة. (17)

(7)

هذه الرقعة الصحراوية الواسعة لم تكن خلوا من موارد الثروة في أشكالها المختلفة: النباتية والحيوانية والمعدنية. إذ إنه ثمة مناطق مختلفة تنتج كميات لا يستهان بها من الحبوب، منها المعروف في مناطق أخرى من العالم –كالقمح والشعير ومنها ما هو خاص بها وهي حبوب طرأ عليها تطور بسبب عوامل التربة الصحراوية والمناخ كالذرة الخاصة بها. وتنمو الفواكه في مناطق مختلفة من الصحراء مثل العنب وسواه. لكن النتاج الزراعي الذي تتفرد به الصحراء الكبرى وخاصة في نصفها الشمالي، هو الثمر. ويرى الباحثون أن شجرة النخيل كانت معروفة في تلك المناطق حتى قبل الوجود الروماني. وتغذي شجرة النخيل المناطق الجنوبية والمناطق الساحلية (18) وقد أشرنا من قبل إلى الثروة الحيوانية، فلا حاجة إلى الإعادة.

أما الثروة المعدنية فتتمثل أصلا بالمعدنين الرئيسيين: الملح والذهب. ويبدو أن التجارة في هذين المعدنين قديمة وهي على العموم، تتجه بالملح من الشمال إلى الجنوب وخاصة إلى مناطق الغابات في السودان الغربي، كما يتجه الاتجار بالذهب من مناطق السودان الغربي إلى الشمال حتى يصل سواحل البحر المتوسط.

وأقدم الملاحات تصديرا له هي إجّيل التي تقع على مسافة نحو 200 كيلو متر من ساحل الأطلسي في منطقة الصحراء الغربية (إلى الجنوب من المغرب) التي من المؤكد أن ملحها بدأ استعماله في القرن السادس الميلادي. وفي العصور الوسطى كانت تَغازى في أواسط الصحراء، وجادو الواقعة إلى

الشمال الشرقي من مرتفعات أيَر (Air) ومرزُق وتيزِمبت (Tisempt) الواقعة على بعد 250 كلم إلى الشمال من تَمانْرَسّت. وحري بالذكر أن حملة المنصور المغربي على السودان أدت إلى التخلي عن ملاحة تغازى فبدأ العمل في ملاحة تاوْدوني التي تقع على مسافة 800 كلم إلى الشمال من تُمْبُكْتو. (19)

أما الذهب فنترك الحديث عنه إلى حين يأتي دوره في طرق الاتجار به فيما يلي من هذا البحث. وقد أشرنا من قبل إلى النطرون والجديد والنفط والاورانيوم.

(8)

نرى من الواجب علينا أن نضع أمام القارئ تبتا مختصرا بالدول الاسلامية التي قامت في الشمال الافريقي وفي السودان الغربي، لان الافادة التامة من طرق المغرب والعربي ومسالكه جاءت بسبب التطور التجاري الكبير الذي لف المنطقة في أيام هذه الدول.

تم فتح الشمال الافريقي في عهد الخلفاء الراشدين (11-40هـ/632-661م) وعهد الدولة الأموية (41-132هـ/661-750م). وظلت المنطقة بكاملها ولاية اموية عاصمتها القيروان.

لكن مع قيام الخلافة العباسية سنة 132هـ/749م، ضعف النفوذ المركزي في الشمال الافريقي، الذي كان قد بدأ يهتز حتى في أيام الأمويين. ومن هنا نجد أن المغرب العربي عرف دولا مستقلة (أو شبه مستقلة) في وقت مبكر.

قام ثمة دولتان اسسهما مهاجرو الأباضية (الخوارج): الأولى دولة بني مدرار في سجلماسة في الصحراء (140-297هـ/757-909م). وقد بنى هؤلاء هذه المدينة واتخذوها عاصمة لهم. والثانية الدولة الرستمية في تاهِرْت أو تَيْهِرْت) في غرب الجزائر (160-297هـ/777-909م). وقد ازدهرت هاتان الدولتان بسبب تجارة الصحراء. وكان قيام الدولة الفاطمية (297هـ/909م) ايذانا بالقضاء عليهما.

وقامت في منطقة مملكة المغرب الحالية دولة الادارسة (172-214هـ/789-926م).

وقد فوض هارون الرشيد ابرهيم بن الأغلب، عامله على تونس ادارة ولايته ادارة شبه مستقلة واستمرت هذه الدويلة من 184-296هـ/800-905م وإلى الاغالبة يعود الفضل في فتح العرب لجزيرة صقلّية وجزء من سردينيا.

خارطة 7

في سنة 297هـ/909م قامت الخلافة الفاطمية في افريقية (في مدينة المهدية بتونس). وكانت النتيجة الأولى لقيام هذه الخلافة، على ما مر بنا، القضاء على الدولة الرستمية وبني مدرار ودولة الاغالبة وإضعاف دولة الادارسة. لكن لما انتقل الفاطميون إلى مصر سنة 358هـ/969م، ضعف شأنهم في بلاد الشمال الافريقي وقامت على ما كان ملكهم فيه الدولة الزيرية (547-361هـ/972-1152م) وكانت القيروان عاصمتها أولا ثم المهدية. وإلى جانب الدولة الزيرية، وإلى درجة معينة كانت خليفة لها، كانت دولة بني حماد (547-405هـ/1015-1152م). وقد تم القضاء على الدولة الأولى على يد النورمان والمرابطين، أما الثانية فقد استولى عليها الموحدون.

وكانت الدولة الكبيرة التي يعنينا أمرها في الشمال الافريقي من حيث موضوعنا هي دولة المرابطين (541-448هـ/996-1016م) التي قامت على أكتاف قبيلة صنهاجة وحلفائها. بَنى يوسف بن تاشُفين مراكش واتخذها عاصمة له، واستولى سلاطينها على المغرب وبعض الجزائر وأجزاء من الأندلس.

وقضى الموحدون (667-524هـ/1130-1296م) على المرابطين. وقد توسع ملك الموحدين بحيث شمل المغرب الأقصى والأوسط وافريقية (تونس) ومنطقة طرابلس وأجزاء من الأندلس.(20)

أما في السودان الغربي، وهو الجزء من افريقية الاستوائية الواقع إلى الجنوب من الساحل (السهوب/السافانا) حيث تكثر الغابات وتنمو النباتات المتنوعة، فقد قامت، في الفترة التي تعنينا الدول التالية:

أولا- دولة التَكْرور وكانت حول مدينة تَكْرور على نهر السنغال. وقد اعتنق أهل تكرور الاسلام منذ العقود الأخيرة من القرن الخامس هـ/الحادي عشر م.

ثانيا- مملكة غانا (غانة) التي كانت أراضيها تشمل المنطقة الممتدة من أعالي نهر السنغال إلى نهر النيجر. ويبدو أن هذه الدولة أصبح يدير أمورها، بدءا من أواخر القرن الثاني هـ/حول 800م، أسرة قوية بسطت نفوذها على منطقة واسعة امتدت شمالا إلى تيشِت، فسيطرت على المراكز التجارية الآتية من الشمال الافريقي. وسيطرت منذ أواخر القرن الرابع هـ/العاشر م على أوْداغُشْت، أحد أكبر المدن التجارية وأغناها. وقد احتل المرابطون أوْداغُشت ثم مدينة غانة (446هـ/1054م و 469هـ/1076م على التوالي) وفرضوا الاسلام على البلاد المفتوحة.

ثالثا- دولة مالي – ويمكن اعتبارها خليفة دولة غانة، وهي إلى الجنوب منها. وقد توسعت على يد بَرْمَنْدانا الذي اعتنق الاسلام (القرن الخامس هـ/الحادي عشر م) وقد ادى فريضة الحج، ولعله أول ملك افريقي سوداني قام بذلك. وقد بدأ الضعف يدب في هذه الدولة بدءا من أواخر القرن السابع هـ/الثالث عشر م، ومع ذلك استمرت حتى حول 800هـ/1400م. وأخيرا قضى سِني (سِنّ) علي، منشئ امبراطورية سُنْغاي (صُنْغاي) الذي احتل جِنّي وتُمْبُكتو (873هـ/1468م و 871هـ1470م على التوالي). فكان هذا ايذانا بزوال الدولة السودانية الكبيرة الأولى.

رابعا- دولة سُنْغاي (صُنْغاي) التي يعود قيامها إلى القبائل التي سميت الدولة باسمها. وبين سنتي (471 و 475هـ/1078 و 1082م) اعتنق ملوك الأسرة الحاكمة واسمها "زا" الاسلام وكانت آخر عاصمة لاسرة "زا" هي غاو، على نهر النيجر. لكن أسرة سَنّي (سِنّ) علي وسّعت حدودها على يد علي الكبير (869-898هـ/1464-1492م) وقام خلافاؤه، أباطرة سُنْغاي (صُنْغاي) بانهاء دول اسرة "زا" وتوسيع رقعة دولتهم، التي استمرت حتى ارسل المنصور المغربي (986-1012هـ/1578-1603م) حملته الكبرى إلى السودان حول 1000هـ/1591م، فقضت على هذه الامبراطورية.

خامسا- بدأت في منطقة كانِم – بورنو قرب بحيرة تشاد دولة صغيرة منذ أواخر القرن الثاني هـ/الثامن م، الا انها أصبحت قوية على يد أسرة تسمى صفاوة (سيفية؟) التي اعتنق ملوكها الاسلام بعد سنة 500هـ/1106م. وهذه الدولة استمرت حتى القرن العاشر هـ/السابع عشر م.(21)

الطرق والمسالك

(1) المصادر

سنعتمد في تقصينا أخبار الطرق والمسالك التي كانت تخترق المغرب، وما كان يحمل عليها من السلع، على المصادر الاساسية التالية:

1. ابن خُرْداذْبه المتوفى حول عام 300 هـ/912م، في كتابه "المسالك والممالك" (برليدن، بريل، 1889، صورة فوتوغرافية، بغداد، مكتبة المثنى؟).
2. أبو الفرج قدامه بن جعفر المتوفى حول عام 320هـ/930م والمتوفر لنا هو جزء من الكتاب الاصلي نشر بعنوان "بند من كتاب الخراج وصناعة الكتابة" (ليدن بريل، 1889، صورة فوتوغرافية، بغداد، مكتبة المثنى؟).
3. اليعقوبي المتوفى عام 284 أو 292هـ أو 897هـ/905م، كتابه "كتاب البلدان" المطبعة الحديثة، النجف، 1957

4. الاصطرخري، المتوفى بعد 340هـ/951م في كتابه "المسالك والممالك" تحيق محمد جابر عبد العال الحيني (القاهرة، وزارة الثقافة والارشاد القومي، 1381هـ/1961م).
5. ابن حوقل المتوفى بعد 367هـ/977م في كتابه "صورة الارض" نسخة مصورة بيروت، مكتبة الحياة 1936 عن طبعة كرامرز، ليدن، بريل).
6. المقدسي المتوفى حول 390هـ/1002 م في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" (تحقيق دىخويه، ليدن، بريل، 1906).
7. البكري 432-487هـ/1040-1094م) في كتابه "المسالك والممالك"، والذي بين أيدينا من هذا الكتاب هو الجزء المسى "المُغْرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب" الذي حققه دوسلان ونشر في مطبعة الحكومة في الجزائر سنة 1857.

ولن نتحدث عن هذه المصادر الأصلية ففي ذلك خروج عن نطاق البحث، لكننا نحيل القارئ على دراسات وتقييم لهذه المصادر، آملين أن تتاح له الفرصة للاطلاع عليها إذا رغب في ذلك واتسع وقته. (22) وهذه المصادر تتفق زمنا مع حدود الفترة المحددة للبحث.

وسنفيد من معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى 626 هـ/1229م ومن الروض المعطار في خبر الاقطار لمحمد بن عبد المنعم الحميري، المتوفى سنة 727هـ/1327م ومن "تقويم البلدان" تأليف أبي الفداء صاحب حماة، المتوفى 732هـ/1332م. (23) وذلك للتثبت من التطور الذي أصاب بعض المدن والطرق بعيد فترتنا.

خارطة 8

وقد رأينا أن نتخذ صورة الأرض لابن حوقل نقطة انطلاق للعمل مع العودة إلى ابن خرداذبة لما سبق، ومقارنة المادة المتوفرة بما يرد عند الاصطخري والمقدّسي، فيما اعتبرنا البكري يمثل نهاية الفترة بالذات.

(2) الطرق الساحلية (الشرقية)

يحدد ابن حوقل المغرب على النحو التالي "... وحدّه من مصر الاسكندرية على النيل وأرض الصعيد حتى يمضي على ظهر الواحات إلى برية تنتهي إلى أرض النوبة، آخذا إلى البحر المحيط وممتدا إلى حقيقة الغرب بنواحي أرض غانة وأرض اوداغست، ثم يستمر عاطفا إلى الشمال مارا على بلاد برغواطة وماسه إلى فوهة بحر الروم... وراجعا حده من أرض طنجة على البحر إلى نواحي تِنِس وإلى تونس

والمهدية من أرض افريقية [تونس] مقبلا على أرض طرابلس وبرقة إلى الاسكندرية... ثم البحر المحيط [بـ] الجنوب فيمر على ماسة ومغارب سجِلْماسَة وظاهرا السوس الأقصى، ويمتد على ظواهر أَوْدَغُشْت وغانِة وكوغة [غاو] وقبول سامة وغريوا في بلد لاعداد لاهلها إلى أن يصل إلى البرية التي لا تسلك إلى الحين. ويكون بين دِبْرته وبلاد الزنج براري غظيمة ورمال كانت في سالف الزمان مسلوكة، وفيها الطريق من مصر إلى غانة. فتوارت الرياح على قوافلهم ومفرداتهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة. وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة. وكانت القوافل بالمغرب إلى سجلماسة، وسكنها أهل العراق وتجار البَصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق. فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة، ومفرداتهم دائمة، وقوافلهم غير منقطعة، إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة، قلما يجاريها التجار في بلاد الاسلام سعة حال. ولقد رأيت صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأَوْدَغُشْت، وشهد عله العدول باثنين وأربعين ألف دينار. (24)

وهذا يتفق مع ما مر بنا من أنه حتى القرن الثالث الميلادي كان ثمة طرق تجتاز هذه الصحارى من الشرق إلى الغرب، فيما انقطع هذا فيما بعد. وإذا نحن رجعنا إلى البكري وجدنا هذا الأمر واضحا – إذ نرى في الخارطة رقم المرسومة على أساس ما ورد عند هذا الجغرافي مجموعتين من الطرق – شرقية من زويلة ونواحيها إلى الشرق – وغربية حدها الشرقي خط يمتد من طرابلس إلى غاو على النيجر، والطرق الواقعة إلى الغرب منه كانت عامرة في القرن الخامس هـ/الحادي عشر م، أما الشرقية فكانت قد ضعف أمرها وتحددت تجارتها نسبيا. (25)

ونحن سنتابع الطريق الساحلي الشمالي أصلا ثم ننتقل إلى الطرق الداخلية. والذي عليه أهل الرأي من الجغرافيين المعاصرين هو أن المغرب يبدأ في برقة. ولذلك فإن أكثرهم يحددون طريق الوصول إلى برقة من مصر، قبل أن يتابعوا السير غربا.

ويبدأ الطريق من مصر من مكانين لإنهما كانا مركز الاتجار والتنقل والسفر – الفسطاط والاسكندرية. ويلتقي الطريقان في ذات الحمام ويصير الطريقان طريقا واحدا إلى برقة (26) وهي منطلق المغرب في عرف الجغرافيين العرب الأوائل.

"فأما برقة فمدينة وسطة ... ولها كور عامرة وغامرة وهي في بقعة فسيحة ... ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها، وأرضها حمراء خَلوقيّة التربة وثياب أهلها ابدا محمّرة ... ويطوف بها من كل جانب بادية يسكنها الطوائف من البربر. وهي برية بحرية جبلية. ووجوه أموالها جمة. وهي أول منبر ينزله

القادم من مصر إلى القيروان. وبها من التجار وكثرة الغرباء في كل وقت ما لا ينقطع طلابا لما فيها من التجارة، وعابرين عليها ومغربين ومشرقين. وذلك أنها تتفرد في التجارة بالقطران ... والجلود المجلوبة للدباغ والتمور الواصلة إليها من جزيرة أوجلة ولها أسواق حادّة حارّة من بيوع الصوف والفلفل والعسل والشمع والزيت وضروب المتاجر الصادرة من الشرق والواردة من المغرب. وشرب أهلها من ماء المطر بمواجن يدخّر بها، وأسعارها بأكثر الأوقات فائضة بالرخص في جميع الأغذية." (27)

يبدو أن هذا كان حال برقة، منطقة ومدينة، قبل مجيء الهلاليين في القرن الخامس هـ/الحادي عشر م ومن هنا كان وصف ابن سعيد لها بقوله "ليس فيها مدينة ممصّرة لاستيلاء العرب عليها.(28)

وبرقة المدينة المشار إليها هي مدينة المرج حاليا الواقعة في الجبل الأخضر. وفي زمن الوجود الايطالي في ليبيا، في أوائل القرن العشرين، أطلق عليها اسم بارتشه (Barce) ، وهو إحياء للإسم القديم. على أنه من المهم أن نتنبه إلى أن ابن حوقل يستعمل الإسم على شكلين – الأول اسما للمدينة والثاني يتكلم فيه على المنطقة بكاملها."

وتأتي المحطة التالية الرئيسية أجْدابْيَة وهي "على صحصاح من حجر في مستواه. بناؤها بالطين والآجر، وبعضها بالحجارة ولها جامع نظيف. ويطيف بها من أحياء البربر خلق كثير. ولها زرع بالبخس، وليس بها ولا ببرقة ماء جار. وبها نخيل حسب كفاياتهم وبمقدار حاجتهم. وواليها القائم بما عليها من وجوه الأموال وصدقات بربرها وخراج زروعهم وتعشير خضرهم وبساتينهم هو أميرها، وصاحب صلاتها وله من وراء ما يقيضه للسلطان لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان." (29)

وننتقل بعد ذلك إلى سُرْت (سِرْت)، وهي ميناء الذي تَرِدُه المراكب وعليها المتاع وتصدر عنها بشيء من الشبّ السُرْتي وبالصوف. والابل والغنم فيها أكثر منها في أجْدابْيَة. ولها أعناب وفواكه. (30) أما ابو الفداء فينقل عن ابن سعيد قوله: "وسرت من القواعد القيمة المذكورة في الكتب وقد خربها العرب [بنو هلال] وبقي بها قصورهم يسكنون بها." (31)

والمدينة الكبرى التي نتوقف عندها الآن هي أطرابُلس (طرابلس) "وهي مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق [خارجا وداخلا]. وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية ... وبها من الفوكه الطيبة اللذيذة الجيدة القليلة الشبه بالمغرب وغيره: كالخوخ الفرسك والكُمَّثرى ... وبها الجهاز الكثير من الصوف المرتفع وطيقان الاكسية الفاخرة

الزرق والكحل النفوسية والسود والبيض الثمينة إلى مراكب تحط ليلا ونهارا، وترد بالتجارة على مر الأوقات والساعات صباحا ومساء من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الأمتعة والمطاعم." (32) ويبدو أن هذه المدينة لم يصبها الخراب الذي أصاب برقة وسرت فقد ورد ذكرها في تقويم البلدان نقلا عن العزيزي على أنها مرسى للمراكب. (33)

ومع أن ابن خرداذبه وقدامة بن جعفر يكتفيان بذكر قابس علما أنها على الطريق بين طرابلس وسفاقس ويذكرها ابن حوقل في تفسيره للصورة (الخريطة) التي رسمها لتوضيح كتابه، (34) فقد أشار إليها ابو الفداء بقوله: "وقد خصت من بلاد افريقية بالموز وحب العزيز والحناء وبينها وبين البحر ثلاثة أميال والمراكب المتوسطة تدخل في نهرها." ولعل بعدها عن البحر، ولأنها لم تكن مرسى كبيرا تجنب هؤلاء الحديث عنها.(35)

"ومدينة سُفاقس مدينة جل غلاتها الزيتون والزيت، وبها منه ما ليس بغيرها مثله... وزيت مصر وقتنا هذا فمن ناحيتها يجلب لقلته بالشام... ولها مرسى ميّت الماء ... وفيها محارس مبنية للرباط بها، وأسواقها عامرة ... وشرب أهلها من مواجل بها ... ولهم من صيد السمك ما يكثر ويعظم."(36)

أما البكري فيقول "... مدينة سُفاقس مدينة على البحر مسورة ولها أسواق كثيرة ومساجد وجامع مسورة ... ولها حمامات وفنادق وبواد عظيمة وقصور جمة وحصون ورباطات على البحر منها محرس بطوية وهو أشرفها وفيها منار مفرط الارتفاع ... وسفاقس في وسط ألذ غابة زيتون، ومن زيتها يحتار أهل مصر وأهل المغرب وصقلية والروم ... وهي محط السفن ... يقصدها التجار من الافاق بالأموال الجزيلة لابتياع المتاع والزيت. (37)

والموقف الثاني على الطريق الساحلي هو المهدية. يقول عنها ابن حوقل "والمهدية مدينة صغيرة استحدثها المهدي [عبيد الله المهدي، أول الخلفاء الفاطميين 297-322هـ/909-934م] ... وتحول اليها من رقّادة القيروان في سنة ثمان وثلاثمئة ... فرضة لما والاها من البلاد، كثيرة التجارة حسنة السور والعمارة منيعة ... كثيرة القصور نظيفة المنازل والدور حسنة الخانات والحمامات ... أدركتها سنة ست وثلاثين [وثلاثمئة هـ/948م] وملوكها حماة وتجارها طراة. وقد اختلت أحوالها والتاثت أعمالها وانتقل عنها رجالها [أي خروج الخليفة المعز الفاطمي 341-365هـ/953-975م الذي انتقل إلى مصر] ... وقد بقي بها بعض رمق".(38)

ويطيل البكري الحديث عن المهدية. فبعد أن يصفها على ما كانت عليه أيام عزها – ميناء وصهاريج ماء وقصور أو جامعا – يشير إلى دار الصناعة التي كانت تسع أكثر من مئتي مركب وإلى أنها كانت عامرة بأسواقها وجندها، يشير إلى خلو أكثر أرباضها وبتهدمها إذ تركها أهلها.(39) ويعود إلى ذكرها فيقول عنها أنها "محط للسفن لمن قصدها من جميع الجهات."(40) وهذا يتفق مع ما تم على أيدي بني زيري (543-361هـ/972-1148م) وهم خلفاء الفاطميين في تلك المنطقة، ذلك لما اضطر بنو زيري إلى ترك القيروان انتقلوا إلى المهدية وعنوا بتحصينها وبناء أسطول قوي وكانت المهدية يومها مركزا تجاريا كبيرا. (41)

(3) الطرق الساحلية الغربية

ويمر الطريق الساحلي بعد ذلك بسوسة، ثم بتونس "وهي قديمة أزلية ... وهي خصبة في ذاتها متسعة بغلاتها ويعمل بها غضار حسن الصباغ وخزف حسن كالعراقي المجلوب ... وهي مصاقبة لقرطاجنة المشهور أمرها بالطيب وكثرة الفواكه ... واتساع الغلات. ومن غلاتها القطن ويحمل إلى القيروان فيظهر الانتفاع به، وكذلك القِنَّب والكَرَوْيا والعصفر والعسل والسمن والحبوب والزيت وكثير من الماشية"(42)

ويخص البكري تونس بحديث طويل والذي يهمنا منه في هذه المناسبة هو أنها كانت ميناء تجاريا ومنطلق قتال مع الروم. كما أنه كان يصنع بها انية للماء... وهي من أشرف مدن افريقية [بحسب المصطلح الجغرافي العربي كانت افريقية تعنى القطر التونسي ن.ز.] وفيها اللوز الفريك والحيتان [الأسماك] الجيدة والاترج ... والتين وسوى ذلك من الفواكه ... وهناك الزيتون وله غلة عظيمة تبلغ سبعين الف درهم ... وهي فرضة كبيرة... (43) "ومرسى الخَرَز وفيه معدن المرجان. ومرسى الخَرَز أيضا قرية غير أنها نبيلة لمكان المرجان وحضور من يحضرها من التجار. ولا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة ... وللتجار بها أموال كثيرة من أقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان وشراه. ويعمل في أكثر الأوقات في إثارة المرجان الخمسون قاربا وما زاد على ذلك مما في القارب العشرون رجلا إلى ما زاد أو نقص." (44)

وننتقل إلى مدينة بونة [عُنَّابة]، "لها أسواق حسنة وتجارة مقصودة. وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه إلى الأقطار الغزير الكثير ويزرع بها الكتان. ومن تجارتها الغنم والصوف والماشية." (45) ونتوقف مع ابن حوقل عند تِنِس "وهي أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون في مراكبهم ويقصدونها

بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها. ... ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها أموالهم جسيمة غزيرة وبها من الفواكه والسفرجل المعنّق ما لا أزال أحكيو لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته." (46)

وينقلنا ابن حوقل إلى وَهْران التي يقول عنها "ولمدينة وَهران مرسى في غاية السلامة والصون... وهي فرضة الأندلس، اليها ترد السلاع ومنها يحملون الغلال، والغالب على باديتها البربر".(47) ويقول البكري إن مدينة وَهْران حصينة ذات مياه سايحة وأرجاء ماء وبساتين ولها مسجد حامع. وينتجع مرسى وهران الاندلسيون الذين عمروها بعد هجرتهم من بلادهم. ومع أنها تهدمت بسبب حروب داخلية سنة 297هـ/910م فإنها بنيت من جديد بدءا من السنة التالية.(48)

ويبدو أن ابن حوقل لم يتحدث عن تلمسان لأنها لا تقع على الشاطئ، فان ابن خرداذبه أشار إليها ولكنه يدعوها تَلَمْسين.(49) الا أن البكري يعدها من مدن المنطقة الساحلية ويقول عنها أنه لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار وهي مقصد لتجار الآفاق.(50) وكذلك يذكرها ابو الفداء على أنها مدينة مشهورة وكبيرة ولها فرض عديدة أشهرها هنين ووهران. (51)

ويحدثنا ابن حوقل عن سبتة بأنها مدينة لطيفة على نحر البحر.(52) وثمة طنجة وهي مدينة قائمة على وجه البحر. وأكثر أموال أهلها من الزرع حنطة وشعيرا وحبوبا.(53)

أما بعد منعطف الساحل جنوبا فاننا نجد موانئ صغيرة نسبيا لأن المحيط الأطلسي كان في الزمن الذي نحن معنيون به بكرا بالنسبة للحركة التجارية في البحر المتوسط. ولذلك فالموانئ عليه كانت تتجه نحو الداخل أو كانت مراكز للتنقل المحلي في محاذاة الشواطئ.

يقول ابن حوقل بعد عرضه لهذه الطرق والمدن الواقعة عليها: "وهذه أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحر بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط مما انتهيت اليه وأدركته بالعيان أو أخذته عمن نشأ فيه". (54)

ونحن نجد الموانئ التالية، في اتجاه شمالي جنوبي، ازيلي (اواصيلي أو اصيلة) (55) وسلا وفيها رباط (56) وآسفي (57) وايجلي (58) وأوليل (59) ونول وهي آخر بلاد الاسلام. (60)

يحدثنا ابن حوقل عن طرق ثلاثة تصل القيروان (61) بالمسِيلة، الواقعة على طريق فاس. وهي باختصار كلي (1) القيروان، سُبَيبَة، (62) قسنطية، (63) مرورا بجبل أَوْراس، سطيف،(64) المسيلة.(65) (2) القيروان جلولا (66) أُجَر (67) أُبَّه (68) تامسنت قصر الافريقي (69) المسيلة (3) القيروان قسطيلة (70) نفطة باديس (71) بسكره (72) طُبْنَة (73) مَقَّرَ (74). المسيلة.

ويذكر المقدسي ايضا ثلاثة طرق تصل القيروان بالمسيلة ولكن التفصيل، أي عدد المدن أو القرى الكبيرة الواقعة على الطرق، هي أقل مما أورده ابن حوقل. وهي:
(1) القيروان، قفصة، (75) قسطيلية ثم (المسيلة) (2) القيروان، سطيف، ثم (المسيلة) (3) القيروان، القصر الأفريقي، تبسّه (76) ثم (المسيلة).

أما ما تبقى من الطريق من المسلة إلى فاس فيقول عنه ابن حوقل أن محطاته هي: يلّل، (77) تاهرت، (78) جرماطة، (79) فاس (80).

أما المقدسي، وهو أقل تعدادا للمحطات من ابن حوقل فيقتصر، في الحالات الثلاث التي يتحدث فيها عن الطرق المؤدية إلى فاس، على ذكر تاهرت، تلمسان، فاس.

وحري بالذكر أن البكري يذكر طريقا واحدا يصل القيروان بفاس ومحطاته الرئيسية هي: القيروان، سبيبة، مجانة، طبنة، يلّل، تازا، جرماط، مكناسة، فاس.(80) ومن الواضح أن البكري اعتمد على ابن حوقل، ولكنه اكتفى بطريق واحد.

وقد توصل موريس لومبارد إلى خلاصة لهذه الطرق، على أساس الانتفاع منها إلى تعداد المحطات التالية: القيروان، العباسية، رَقّادة، المنصورية (المنصورة)، تاهرت، وَرْغْلَة، طُبْنَة (قرب شط الهدنة)، قلعة بني حماد، تلمسان، وُجْده، مكناسه، (82) فاس.

هذا الطريق أطلق علية لومبارد اسم طريق الهضبات الوسطى. ومن الملاحظ أن أيا من الجغرافيين العرب لم يتحدث عن تتمة لهذا الطريق شرقا في الصحراء الليبية، ذلك بأن هذه الصحراء كانت قاحلة إلى حد أنها لم تمكن القوم، على الأقل بعد نشوء الصحراء الكبرى، من استعمالها، ولذلك فقد اكتُفي بالطريق الساحلي.

طريق الساحل وطريق الهضبات الوسطى كان التنقل عليهما مستمرا، وان كان يتبدل قليلا في الطريق الثاني بين الصيف والشتاء.

فضلا عن ذلك فهناك أمران يجدر بنا أن نشير اليهما. الأول أن طرق الهضبة الوسطى تكاد تتوسط خط سقوط المطر الذي يفصل ما بين شمال المغرب حيث يسقط من المطر 400 ملم ويزيد وجنوبه حيث يقل سقوط المطر عن 400 ملم، ليصل إلى 100 ملم وهي المنطقة الصحراوية.

أما الأمر الثاني فهو أن هذه الطرق تتفق أحيانا كثيرة مع الطريق الروماني الذي كان يمتد من شرق تونس إلى تلمسان. والمدن التالية هي مثل واضح على ذلك، بادئين من الشرق في اتجاه غربي.

سْبِيبَة (Sufes) بادِس أو باديس (Badias) بِسْكْرَه (Vescera) طُبْنَه (Thubunae) مَقَرَة (Macri) قسنطينة (Cirta) سطيف (Sitifis) تِلْمِسان (Pomaria) .(83).

إلى هذين الطريقين، طريق الساحل وطريق الهضبات الوسطى، ثمة طريق ثالث يقطع المغرب (العربي)، على ما عرفه الجغرافيون القدامى، من الغرب إلى الشرق هو طريق القصور، الذي يحاذي المنطقة الشبيهة بالصحراء في شمالها من الغرب إلى الشرق، وأهم محطاته دَرْعَة (84) وهي مجموعة من قرى صغيرة في وادي درعة، ومن مدن صغيرة هي: نول لمطه (85) وجَرْولة (86) التي تقع على سواحل الأطلسي ويتجه الطريق بعدها عبر صحراء لَمْتونه إلى أغمات، (87) نَفّيس (88)، سِجِلْماسة (89) ووَرْغْلَه، غدامس (90). لكن الطريق كان يتجه من هذه المناطق، نحو الساحل حول طرابلس وما اليها. وقد سمي الطريق طريق القصور بسبب قيام قصور في مراكزه، وهي أبنية كانت أصلا للحراسة، ثم أصبحت بعد قيام دولة المرابطين (541-488هـ/1056-1147م) اربطة. ولما انشئت مدينة مراكش (470هـ/1077م)، صارت هذه المدينة مركزا كبيرا على طريق القصور. (91)

وأخيرا فهناك الطريق الصحراوي، الذي يكاد يجتاز وسط الصحراء الكبرى، باحثا عن واحة أو مجمع ماء لاقامة تجارة وللاراحة، ومع الزمن أصبحت هذه المواقف أماكن ثابتة ببيوتها وأسواقها. يبدأ هذا الطريق عند أزْغوين وأُوليل (92) ويتجه شرقا عبر اوداغشت (أودغشت) (93) وتادْمَكّة (94) وبلما (عبر كوار) (95) وزويلة (96) واوجيلة (97) (في الصحراء الليبية) وينتهي بوادي النيل بعد أن يخرج منه فرع إلى الحبشة (أثيوبيا). (98)

خارطة 10

(4) الطرق التجارية الصحراوية إلى السودان الغربي

كانت ثمة اربع طرق رئيسية تصل الشمال الافريقي بالسودان عبر الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، وهو الجزء الذي كان، بالرغم ما فيه من صعوبات، يمكن قطعة من الشمال إلى الجنوب، إذ أن الجزء الشرقي من الصحراء الكبرى صعب على القوافل اجتيازه كما ذكرنا من قبل، الا ما قل او حتى ندر.

الطريق الأول كان يخرج من طرابلس فيمر بغُدامِس (غُذامِس)،(99) وبهذه المدينة الجلود المفضلة التي تكوّن المتاجرة بها جزءا من ثروتها. ومن غدامس إلى تادْمَكّة – "وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ... وأهل تادْمَكّة بربر مسلمون..." وبين غدامس وتادْمَكّة يجد التجار حجر الشبّ ومعدنا لحجارة تسمى تاسي النسمت، وهي حجارة تشبه العقيق.. وهذا يغالي أهل غانة بأسعاره. والمسافة بين غدامس وتادمكّة تزيد عن ثلاثين يوما.(100)

الطريق الثاني هو الذي يخرج من القيروان ويتجه جنوبا مرورا بوارجْلان إلى تادمكة. وعندها يتحد الطريقان ويتجهان نحو مدن السودان الغربي التي سنتحدث عنها في حينها.

الطريق الثالث يخرج من سلجامسة. وهي المختارة الفريدة في نظر المقدسي،(101) مع تجارة غير منقطعه لبلاد السودان وسائر البلدان وارباح متوافرة.(102) ويقول البكري عنها "سلجماسه مدينة سهلية جبلية... ولها بساتين كثيرة... وهي كثيرة النخل والاعناب وجميع الفواكه... ومدينة سجلماسة في أول الصحراء لا يعرف في غربيها ولا قبليها [شرقيها] عمران... ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة. وبينها وبين مدينة غانة مسرة شهرين في صحراء عامرة بقوم ظاعنين ولا يطمئن بهم منزل"(103)

من سجلماسه يتجه الطريق إلى تاذْمُلْت (آقا). وهذه كانت مدينة كبيرة ولها سوق عامرة... وأرضها أكرم أرض وأكثرها ريعا، وبها معدن فضة.(104) من تاذْمُلْت تتجه الطريق إلى تُندف وفي

هذه يتفرع الطريق فيسير الشرقي بطريق تغازى أما الغربي فيدور دورة طويلة، ثم يلتقي الطريقان في وانزامين (إنْزِمْران).

وتغازى وهي مدينة الملح. قال عنها ابن بطوطة "هي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال، ولا شجر بها. إنما هي رمل فيها معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحتت ووُضعت تحت الأرض. يحمل الجمل منها لوحين، ولا يسكنها الا عبيد مَسّوفَة، الذين يحفرون على الملح، ويتعيشون بما يجلب اليها من تمر دَرعَة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن انلي المجلوب من السودان. ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح، ويباع حمل الجمل منه بأيْوالاتن (وَلاّطَة) بعشرة مثاقيل إلى أربعين مثقالا. وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة. يقطعونه قطعا ويتباعون به. وقرية تغازى على حقارتها يُتَعامَل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر."(105)

أما الفرع الغربي، ولعله كان الطريق الرئيسي، فقد كان يمر بعدد من المواقف، لذلك ننتقل إلى مركز مهم هو ونزامين (حيث يلتقي بالطريق الشرقي).

خارطة 11

ووانزمين هذه "آبار قريبة الرشاء فيها العذب والشريب، وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش. وبهذا الماء يجتمع (كذا) جميع طرق بلاد السودان. وهو موضع مخوف تغير فيه لَمْطَة وجَزُولَة على الرفاق [التجار] ويتخذونه مرصدا لهم لعلمهم بافضاء جميع الطرق اليه وحاجة الناس إلى الماء فيه."(106) ومن وانزمين يتجه الطريق إلى أوداغُشْت (أوداغُست).

وطريق آخر يصل منطقة اخرى من الشمال ببلاد السودان هو الذي يخرج من وادي درعة (ويلفظ في تلك الجهات وادي دراع على ما سمعته بنفسي).ويبدأ الطريق هنا من مدينة دَرْعة (107) (ويقال لها تيومَتين) إلى أغْمات. (وقد يكون لهذا الطريق فرع آخر، فطرق هذه المنطقة تعدد لأن القوافل قد تضطر إلى تغيير سبيلها بسبب الجو وتقلباته والقبائل ونشاطها والدويلات التي قد تقوم وتزول بسرعة.)

وأَغْمات مدينتان سهليتان احداهما تسمى أغمات إيلان والأخرى أغمات وَريكَة وبها [بهذه] مسكن رئيسهم وبها ينزل التجار والغرباء، وأَغْمات ايلان لا يسكنها غريب ، وبينهما ثمانية أميال [5-6 كيلومترات]،... وحولها بساتين ونخل كثير. وهو بلد واسع يسكنه قبائل مصمودة في قصور واحشار

وهو راخي الاسعار كثير الخير،... الا انه وخم الهواء... وبها أسواق جامعة. فسوق أغْمات وَريكَة يقوم يوم الاحد بضروب السلع وأصناف المتاجر."(108)

ويتجه الطريق إلى ولاّطة (أيْوالاتن)، التي كانت يومها نقطة تلاق لعدد من الطرق والمسالك في غرب السودان والصحارى المصاقبة له.

هذه الطرق التي ذكرناها كانت توصل التجار إلى عدد من المراكز المهمة في السودان الغربي وهي: غاو وغانة وتمبكتو (تنبكتو) وأوداغُشت ومالي. وهذه هي المراكز التي ننتقل إلى الحديث عنها.

5. مدن الساحل (الصحراوي) والسودان الغربي

هذه الطرق التي ذكرنا المحطات الرئيسية التي كانت القوافل تتوقف عندها، كانت تنتهى إلى واحدة أو أخرى من مراكز التجارة في الساحل (الصحراوي) أو السودان الغربي. لذلك سنتوقف قليلا عند كل من هذه لنتعرف إلى دورها في تجارة الصحراء بالنسبة إلى المغرب العربي على ما شرحنا هذه المنطقة من قبل. وسنتناول هذه المدن في اتجاه شرقي غربي، فذلك أيسر جغرافيا.

غاو (كوغَة، كوكوا) وهي مدينة تقع إلى الجنوب من تادمكّة وفي حوض نهر النيجر في مبدأ تغير وجهته إلى الجنوب. "وأكثر ما يتجهز به اليها الملح والودع [الذي يستعمل للشراء والبيع] والنحاس ومعدن الغربيون والودع انفق شيء عندهم وحواليها من معادن التبر كثير وهي أكثر بلاد السودان ذهبا."(109) "والعرب تسمى أهلها [كوكوا] البزركانيين وهي مدينتان مدينة الملك ومدينة المسلمين... ويزعمون أنهم انما سمّوا كوكوا لأن الذي يفهم من نغمة طبلهم هو ذاك... وتجارة أهل بلد كوكوا الملح وهو نقدهم. والملح يحمل من بلاد البربر."(110) ونحسب أن كلمة البزركانيين هي جمع للكلمة التجارية الأصلية الآتية من شرق بلاد الخلافة العباسية – البزرقان — ومعناها التاجر. وفي بيروت إلى الآن سوق صغير، قل استعماله مؤخرا، يسمى سوق البزرقان. وإذا كانت، كما يروي البكري، أصول أعنام مناطق في الصحراء الغربية جاءت من قيس بأرض فارس، فلماذا لا يصل اسم السوق بزرقان إلى تلك المناطق.(111)

خارطة 12

غانة (غانا) وتبعد عن سجلماسة مسيرة شهرين. "وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من التبر المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم. ويهادي صاحب كوغه وليس كوغه بقريب من صاحب غانة في اليسار وحسن الحال، ويهادونه. وحاجتهم إلى اوداغُسْت ماسة من أجل الملح الخارج اليهم من ناحية الاسلام، فانه لا قوام لهم الا به. وربما بلغ الحمل من الملح في دواخل بلد السودان واقاصيه بين مائتين على ثلاثمائة دينار."(112) والمقصود بالحمل في هذه العبارة هو حمل الجمل." ومدينة غانة مدينتان سهليتان احداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها احد عشر مسجدا احدها يجمعون فيه، ولها الأيمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم، وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات. ومدينة الملك على ستة اميال [نحو 3.5 كلم] من هذه وتسمى بالغابة، والمساكن بينهما متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين." "وعلى حمار الملح دينار ذهب في ادخاله البلد وديناران في اخراجه. وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل. وأفضل الذهب في دياره ما كان بمدينة غياروا واذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة (اي القطعة) من الذهب استصفاها الملك، وانما يترك منها للناس هذا التبر الدقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون".(113) وإلى غانة تسبير التجار المغاربة من سجلماسه في برّ مقفر نحو خمسين يوما ولا يحضرون منها غير الذهب الأحمر."(114)

تُمبكتو (تُنبكتو) هي من أقدم المدن التي قامت في حوض النيجر الأوسط. وهي مثلها مثل غوا كانت تقع في المنطقة التي يغطي اراضيها فيضان النيجر الامر الذي يؤدي إلى ري الارضين هناك، ومن ثم نمو الحبوب وسواها من النباتات، وبذلك كانت تكتفي إلى درجة كبيرة بما تنتجه الأرض المروية. والسلعة التي كانت تحتاجها هذه المنطقة هي الملح الذي كان يأتيها من "ممالح" الصحراء في تغازى ونول وتوات وسواها. وهذا التبادل بين منطقة النيجر وتوات وتغازى وما جاورها حيث ترسل هذه الملح إلى الجنوب وتحصل على بعض المواد الغذائية التي تحتاجها كان اساس التجارة. وهذه التجارة اتسعت فيما بعد لما اهتدى الشمال الافريقي إلى سلع اخرى تنتجها المنطقة الجنوبية وما اليها من ريش النعام والصمغ العربي والرقيق، وأهم من هذا الذهب، الذي كانت تدفع ثمنه بما تحمله من الشمال من مصنوعات معدنية وزجاج وأقمشة وثياب وحلى وودع لتباع في أسواق غوا وغانة وتمبكتو ومالي. والحقيقة هي أن هذا الأمر استمر بحيث اصبحت تمبكتو في القرن التاسع هـ/السادس عشر م مركزا في غاية الأهمية للتجارة العالمية الشمالية – الجنوبية، كما أنها كانت مركزا علميا كبيرا. كان هذا قد بدأ في القرن الخامس هـ/ ولكن بلغ القمة في الفترة التي أشرنا اليها سابقا. وكان يومها من السلع المهمة التي تحمل من الشمال إلى الجنوب الكتب العلمية الدينية.

اوداغُشْت (اوداغُسْت) كانت مركزا للقوافل الآتية من الشمال والمتجهة جنوبا وتلك القادمة من الشرق أو الغرب. يقول ابن حوقل "دخلتها [يقصد المنطقة التي تقع فيها اوداغست وجوارها] سنة اربعين [وثلاثمئة] فلم أر بالمغرب أكثر مشايخ في حسن سمت وممازجة للعلم وأهله... ولقد رأيت بأودغُسْت صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار اودغُسْت وهو من أهل سِجِلْماسة باثنين واربعين الف دينار."(116) ونقرأ عند البكري "... وهي مدينة كبيرة آهلة ويطل عليها جبل كبير موت لا ينبت شيئا. بها جامع ومساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن. وحولها بساتين النخل، ويزرع فيها القمح بالفوس (الفؤوس) ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم. وسائر أهلها يأكلون الذرة، والمقاثي تجود عندهم. وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضا. وبها جنان حناء لها غلة كبيرة. وبها آبار غذبة. والبقر والغنم أكثر شيء عندهم... وعسلها أيضا كثير يأتيها من بلاد السودان. وهم ارباب نعم جزلة وأموال جليلة. وسوقها عامرة الدهر كله... وتبابعهم بالتبر وليست عندهم فضة... ويجلب اليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الاسلام على بعد... وسكانها أهل افريقية وبرقجانة ونفّوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة [هذه القبائل من البربر] و... وبها نبذ من ساير الأمصار... والحيوان الذي يعمل منه الدرق حول اودغُسْت كثير جدا. ويتجهز إلى أودغُسْت بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم، والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتوله. وذهب أودغُسْت أجود من ذهب أهل الأرض واصحه."(117)

مالي (مليل): كانت دويلة كانغابا (أو كابا) تقوم في حوض النيجر الأعلى. وفي القرن الثالث هـ/التاسع م قامت اسرة كيانا باقامة دولة مالي على أنقاض كانغابا. وفي القرن التالي كانت مالي قد أصبحت دولة ذات شأن. وإذ ضعفت دولة غانا، فقد كانت مالي هي التي تولت شؤون المنطقة فيما بعد. والمهم أن مالي أصبحت المركز الرئيسي لجمع الذهب من بوره، إذ انتقل جمع الذهب جنوبا إلى هذه المنطقة. وفي أيام منسى سكورو، في أواخر القرن السادس هـ/الثاني عشر م، أصبحت سوق مالي محط رحال تجار المغرب.(118)

خارطة 13

(6) مع ابن بطوطة إلى السودان الغربي

في الذي ذكرناه عن الطرق التجارية في الصحراء، ذكرنا المحطات الرئيسية التي كانت القوافل تتوقف عندها، وأشرنا إلى ما كان في أسواقها من سلع. ولم نصف الطريق بالذات وما كان يلقاه اولئك الذين يجتازون الصحاري من متاعب وصعوبات إذ أن الأمر يطول. ولكننا رأينا أن ننقل هنا مسيرة ابن بطوطة في رحلته في تلك الأصقاع لأنها تعطينا صورة واضحة. صحيح أن ابن بطوطة قطع الصحراء سنة 753 هـ/1352م، وهي سنة متأخرة بالنسبة لحدود الموضوع الزمنية. ولكن من المؤكد أن الطرق والصحاري لم تتغير بين الزمنين.

يقول الرحالة أنه قام بالرحلة لاشباع رغبته في التعرف إلى تلك المناطق. لكن الحقيقة هو أنه قطع هذه الفيافي بطلب من السلطان المريني ابن عنان (759-749هـ/138-1358م) سلطان المغرب أملا في أن يتمكن من التعرف على المصدر الأصلي للذهب والتبر الذي كان يحمل من مالي إلى المغرب.

انطلق ابن بطوطة من سجلماسة، نقطة انطلاق القوافل حيث قضى أربعة أشهر يعلف الجمال التي ابتاعها في المدينة وذلك استعدادا للرحلة.

وكانت محطته التالية تغازى. يقول الرحالة "من تغازى يرفع الماء لدخول صحراء لا ماء فيها لعشرة أيام." وبعد الأيام العشرة وصلت القافلة إلى تاسْرَهْلا حيث ارتوى القوم من مائها واصلحوا اسقيتهم (الجلدية) وملأوها بالماء وخاطوا عليها التلاليس وهي أوعية من الخوص، خوف الريح.

وكان رجال القافلة يعنون في اجتيازهم الصحراء التكشيف. "والتكشيف اسم لكل رجل يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى ايلوالاتن [ولاّطة] يكتب المسافرون إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء مسيرة اربع [قبل ولاطة]. ومن لم يكن له صاحب في تلك المدينة، كتب إلى من شُهر بالفضل من تجارها، فيشاركه في ذلك. وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء، فلا يعلم أهل ولاّطة بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم... والدليل هناك من كثر تردده وكان له قلب ذكي. ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا كان أعور العين الواحدة مريض الثانية وهو أعرف بالطرق." وكان حظ قافلة ابن بطوطة جيدا. فقد دفعوا للتكشيف مئة مثقال من الذهب، لكنهم كوفئوا، إذ أنهم في اليوم السابع رأوا نيران الذين خرجوا من ولاّطة للقائهم. ويقول رحالتنا أن هذه الصحراء كثيرة البقر الوحشية والحيات. ووصلت القافلة ولاّطة بعد شهرين من الخروج من سجلماسة. وولاّطة كانت أول عمالة السودان. ويضيف "ولما وصلناها جعل التجار امتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحمايتها."

من ولاّطة سافر ابن بطوطة إلى مالي، وذلك لمقابلة سلطانها في مهمة لأبي عنان. يقول ولما عزمت السفر إلى مالي وبينها وبين ولاّطة مسيرة اربعة وعشرين يوما للجدّ، اكتريت دليلا من [قبيلة] مسّوفة... وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرة الأشجار، وأشجارها ضخمة... وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء... ويشرب الناس منه. ويكون في بعضها النحل والعسل...

بعد ولاّطة كان سير القافلة في طريق غابات وأشجار. والمسافر في هذه البلاد لا يحمل زادا ولا ماء ولا اداما ولا دينارا ولا درهما، وإنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج وبعض السلع العطرية، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكا. فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدحجاج ودقيق النبق والأرز ودقيق اللوبياء، فيشتري منهم ا أحب من ذلك" بما كان يحمله.

ولما وصل ابن بطوطة إلى مكان يبعد نحو عشرة أميال من مالي، يقول "وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها الا بالاذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيض [تجار غرباء مقيمون] ليكثروا لي دارا، فلما وصلت النهر جزت في المعدية ولم يمنعني أحد.

من مالي انحدر ابن بطوطة مع نهر النيجر إلى ميمة ثم إلى تنبكتو. "ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة. وكناننزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج اليه من الطعام والسمن والملح، بالعطريات وبحلى الزجاج... ثم سرت إلى مدينة كوكو (وقد مر بنا ذكرها من قبل)... ثم وصلنا إلى بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر، لا تسير القوافل الا في خفارتهم... (ثم) وصلنا إلى مدينة تَكِدّا... وديار تكدّا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري في معادن النحاس... ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء... ولا شغل لأهل تكدّا غير التجارة. يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها... ومعدن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسكبوه في دورهم. يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، فإذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا... وهي صرفُهم يشترون برقاقه اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحمل النحاس منها [تكدّا] إلى مدينة كوبر... ومدينة برنو على مسيرة اربعين يوما من تكدّا."

من تكدّا عاد ابن بطوطة (تلبية لأمر مستعجل من السلطان). فاشترى جملين لركوبه وقصد السفر إلى تُوات ورفع زاد سبعين ليلة، إذ لا يوجد طعام بين تكدّا وتُوات، انما يوجد اللحم واللبن والسمن، يشترى بالأثواب.

ومن كاهر(؟) دخل ابن بطوطة إلى برية لا عمارة فيها ولا ماء ثلاثة أيام ثم إلى برية لمدة خمسة عشر يوما لا عمارة فيها لكن فيها ماء. "ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق فيه طريق غات الآخذ إلى مصر وطريق توات ... وسرنا من هناك عشرة أيام إلى بلاد هكار [طائفة من البربر] وهم لا يغيرون في شهر رمضان ولا يعترضون القوافل." ومن توات عاد إلى سجلماسة.(119)